

أَخْلَاقِيَّاتُ الْعِلْمِ

إن العلم فى نظر الإسلام ليس مجرد حشو الرؤوس بالمعلومات، مهما تكن قيمة هذه المعلومات من جلاله القدر فى موضعها، أو فى طريقة ثبوتها، حتى العلم المقتبس من طريق النبوة - الذى هو العلم الأعلى - لا يكفى فيه محض اكتسابه وتحصيله، بل لا بد لصاحب العلم من الالتزام بالقيم الخلقية التى يفرضها العلم على أهله، والتى جعلتهم أهلاً لأن يكونوا خلفاء الأنبياء، وسنخص بالحديث هنا أبرز هذه الفضائل التى يجب أن يتخلق بها أهل العلم.

١ - الشعور بالمسؤولية:

وأولى هذه القيم: الشعور بالمسؤولية أمام الله، فالعلماء ورثة الأنبياء، ولا رتبة أعلى من رتبة النبوة، ولا درجة أعظم من درجة الوارثين لهذه الرتبة وعلى قدر المنزلة تكون المسؤولية.

عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فىم أفناه؟ وعن شبابه فىم أبلاه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفىم أنفقه؟ وعن علمه: ماذا عمل به (١)؟».

وكلما اتسعت دائرة علم الإنسان كلما عظمت مسؤوليته. فليس من علم مسألة كمن علم عشرأ أو مئة، وكما أن من كثر ماله كثر حسابه، وطال سؤاله، وعسر جوابه. فكذلك من كثر علمه واستبحرت معارفه، كانت مسؤوليته أكبر، وتبعته أثقل.

فهو مسؤول عن علمه من عدة جوانب:

(١) رواه البزار والطبرانى بإسناد صحيح واللفظ له كما فى الترغيب حديث (١٥٦٤) ومجمع الزوائد (٣٤٦/١٠).

مسؤول عن صيانته وحفظه حتى يبقى، ومسؤول عن تعميقه وتحقيقه حتى يرقى، ومسؤول عن العمل به حتى يثمر، ومسؤول عن تعليمه لمن يطلبه حتى يزكو، ومسؤول عن بثه ونشره حتى يعم نفعه، ومسؤول عن إعداد من يرثه ويحمله حتى يدوم اتصال حلقاته، وقبل ذلك كله، مسؤول عن إخلاصه في علمه لله حتى يقبله منه.

وعن مالك بن دينار عن الحسن البصرى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يخطب خطبة إلا الله عز وجل سائله عنها - أظنه قال - ما أراد بها؟».

وكان مالك بن دينار إذا حدث بهذا الحديث بكى حتى ينقطع ثم يقول: تحسبون أن عيني تفر، وأنا أعلم أن الله عز وجل سائلني عنه يوم القيامة: ما أردت به (١)؟

وكان أبو الدرداء الصحابي الفقيه الزاهد - رضى الله عنه - يقول: إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق، فيقول لى: يا عويمر (٢)، فأقول: لبيك رب! فيقول: ما عملت فيما علمت (٣)؟

٢ - الأمانة العلمية:

ومن أخلاقيات العلم الأمانة فهي من لوازم الإيمان، ولا إيمان لمن لا أمانة له. قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنين: ٨]

كما أن الخيانة من لوازم النفاق، فمن آيات المناق البارزة: أنه إذا أوثمن خان (٤).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «تناصحوا في

(١) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقى بإسناد جيد.

(٢) اسم أبي الدرداء: عامر، وعويمر تصغير له.

(٣) رواه البيهقى. كما في الترغيب ج ١ حديث (٢١٥).

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة، اللؤلؤ والمرجان: (٣٨).

العلم، فإن خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانتته في ماله، وإن الله سائلكم يوم القيامة (١) .

وما ذلك إلا لأن الخيانة في المال - مهما عظمت - محدودة الضرر ، أما الخيانة في العلم فقد تدمر مجتمعاً بأسره .

ومن أمانة العلم أن ينسب القول لمن قاله ، والفكرة لصاحبها ، ولا يستفيد من الغير ثم يسند الفضل إلى نفسه ، فإن هذا لون من السرقة وضرب من الغش والتزوير .

وفى هذا قال سلفنا : من بركة القول أن يسند إلى قائله . ولهذا نجد كتب السلف المتقدمين موثقة بالأسانيد التي عن طريقها وصلت الآراء والأقوال في مختلف العلوم . ولم يكن الإسناد في الحديث وعلوم الدين وحدها ، بل شمل علوماً أخرى كالتاريخ واللغة والأدب وغيرها .

ومن أمانة العلم أن يقف الإنسان عندما يعلم ، وأن يقول لما لا يعلم : لا أعلم ، فليس في العلم خجل ولا كبرياء ، وأن يتقبل أي حقيقة أو فائدة علمية تأتيه ، ولو على يد من هو أقل منه علماً ، أو أصغر سناً ، أو أدنى منزلة .

وحسبه أن رسول الله - ﷺ - سئل أمام الملاء من الناس عن الساعة ، فقال بصريح العبارة : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » وذلك في حديث جبريل المشهور . وعن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال « أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها » (٢) .

فهذا هو موقف العالم الأمين : ألا يعيب من سأله ، ولا يفتى من استفتاه إلا بما يستيقنه ويتبينه .

أما من أفتى بغير علم ، أو أشار على من يستشير به بغير ما يعتقد ، فقد

(١) رواه الطبراني في الكبير ورواه ثقات إلا أبا سعد البقال - أحد رواته - فيه خلاف ، انظر : مجمع الزوائد : ١ / ١٤١ ، والترغيب ج ١ حديث ٢٠٦ .

(٢) مسلم في المساجد (٦٧١) وإنما بغضت الأسواق لما يكثر فيها من الطمع والغش والحلف بغير الله ، واللهو عن ذكر الله لا لكراهية التجارة أو البيع والشراء .

خان الأمانة ، واستحق من الله العقوبة . وفى الحديث : « من أفتى (بصيغة المبنى للمجهول) بغير علم كان اثمه على من أفتاه . ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانهُ » (١) .

وهكذا تعلم أصحابه - ﷺ - ومن تبعهم بإحسان من علماء الأمة ، فلم يهابوا أن يقولوا : لا ندرى فيما لا يدرون ، وأن يرددهم من دونهم إلي الصواب ، فيرجعوا جهرة غير متأففين ، ولا مستكبرين ، وأن يغيروا فتواهم إذا تغير اجتهادهم غير خزايا ولا متحرجين .

يقول الإمام محمد بن سيرين : لم يكن أحد بعد النبى - ﷺ - أهيب لما لا يعلم من أبى بكر ، ولم يكن أحد بعد أبى بكر أهيب لما لا يعلم من عمر ، وإن أبى بكر نزلت به قضية فلم يجد لها من كتاب الله تعالى أصلاً ، ولا فى السنة أثراً ، فقال : أجتهد رأى ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ، وأستغفر الله (٢) .

وهذا عمر أمير المؤمنين ترده امرأة ، وهو يخطب على المنبر فى شأن صدق النساء ، فلا يستنكف أن يخطئ نفسه على رأى ومسمع من الناس قائلاً : كل الناس أفتقه من عمر (٣) !

وأفتى عمر فى المسألة المعروفة فى الميراث بـ (الحمارية) ، أو (المشتركة) فى سنة فلم يشرك فيها ، فلما كان العام المقبل شرك فيها ، فلما قيل له فى ذلك قال : تلك على ما قضينا ، وهذى على ما نقضى . رواه الترمذى .

وهذا أمير المؤمنين (على) أفضى الأمة ، وحلال العضلات ، والبحر الذى لا تكدره الدلاء ، يقول : لا يستحبنى أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلم ، وإذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم .

(١) رواه أبو داود فى العلم (٣٦٥٧) والحاكم عن أبى هريرة .

(٢) ابن سعد وابن عبد البر فى العلم كما فى كنز العمال ج ١ حديث رقم (١٤١٩) .

(٣) ذكرها ابن كثير فى التفسير (١/٤٦٧ طبعة الحبى) ونسبها إلى أبى يعلى وقال :

إسناده جيد وقوى .

وسئل يوماً عن مسألة فقال : لا أعلم لى بها . ثم قال : وابردها على الكبد ، سئلت عما لا أعلم ، فقلت : لا أعلم^(١) .

وسأله رجل عن مسألة فأجابه ، فقال الرجل : ليس هكذا يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ، فقال على : أصبت وأخطأت «فوق كل ذي علم عليم»^(٢) .

٣- التواضع :

ومن أخلاق العلماء : التواضع .

فالعالم الحق لا يركبه الغرور ، ولا يستبد به العُجْب ، لأنه يدرك بيقين أن العلم بحر لا شطآن له ، ولا يصل أحد إلى قراره ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

كما أنه يعلم أن قافلة العلم والعلماء مديدة طويلة ، ضاربة في أغوار الماضي ، موصوله بالحاضر ، ممتدة في المستقبل ، وليس هو إلا واحداً منها ، فلا ينبغي له أن يغمط فضل السابقين ، أو ينكر جهد اللاحقين .

وليس هناك من أحاط بكل شئ علماً إلا الله تعالى . أما الإنسان فهو يعرف شيئاً وتغيب عنه أشياء ، ويعرف اليوم ما كان يجهل بالأمس ، ويعرف اليوم ما ينساه في الغد ، ويعرف الظاهر من الأشياء دون الباطن ، والحاضر دون المستقبل .

وأكثر الناس ادعاء للعلم والمعرفة هم أنصاف المتعلمين ، وأشباههم الذين لا يعرفون من العلم إلا القشور دون اللباب ، والسطوح دون الأعماق .

وأما من اتسع أفقه ، وعمق إدراكه ، فهو يكتشف مع كل حقيقة جديدة أنه يجهل أكثر مما يعلم ، وأن العلم أكبر من أن يحاط به ، وكفى بهذا الاعتراف علماً .

يقول الإمام الشافعي :

كَلَّمَا أَدْبَنِي الدَّهْمُ ——— رَأَانِي نَقَصَ عَقْلِي
أَوْ أَرَانِي أَزْدَدْتِ عِلْمًا زَادَنِي عِلْمِي بِجَهْلِي !

(١) كنز العمال ج ١ حديث رقم (١٤٣٧) .

(٢) نفسه رقم (١٤٣٦) وقال : رواه ابن جرير وابن عبد البر في العلم .

ذكر الحافظ المنذرى فى كتابه «الترغيب والترهيب» تحت عنوان (الترهيب من الدعوى فى العلم والقرآن) ما رواه الشيخان عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ قال : « قام موسى عليه الصلاة والسلام خطيباً فى بنى إسرائيل ، فسئل : أى : الناس أعلم فقال : أنا أعلم ، فعتب الله عليه ، إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه : أن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال : يا رب : كيف به ؟ فقيل له : احمل حوتاً فى مكمل^(١) فإذا فقدته فهو ثم ... فذكر الحديث فى اجتماعه بالخضر ... إلى أن قال : فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، ليس لهما سفينة ، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما فعرف الخضر فحملوهما بغير نول^(٢) ... فجاء عصفور فوق على حرف السفينة ، فنقر نقرة أو نقرتين فى البحر ، فقال الخضر : يا موسى ، ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور فى هذا البحر ! والعلم فى هذه العبارة الأخيرة بمعنى المعلوم .

وهذا ما أراد عبد الله الخضر أن يؤكد له لكليم الله موسى عليه السلام : أن علم البشر لا يعد شيئاً يذكر بالنسبة إلى علم الله تعالى .

وهذا ما جعل فحول العلماء من فرسان علم الكلام ، الذين حصلوا أفكار المتقدمين والمتأخرين ، والذين حاولوا يوماً ما الغوص إلى كنه الحقائق الكبرى ، فلم يحصلوا فى النهاية على طائل ، وهلك منهم الظهر ، وانقطع بهم الطريق ، وقال فى ذلك قائلهم وهو فخر الدين الرازى إمام المتكلمين فى عصره ، وصاحب التفسير الكبير ، والكتب المشهورة فى الكلام والأصول :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه فى جهلاته يتغمغم

ما للتراب وللعلوم ، وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم ؟

وقد روى مثل هذا عن عدد من الكبار مثل الباقلانى وإمام الحرمين والشهرستانى وغيرهم .

(١) مكمل بوزن منبر - وعاء يشبه الزنبيل يسع ١٥ صاعاً .

(٢) أى بغير أجر ينال ويعطى .

وقد جاء في الحديث ذم أولئك المدعين المغرورين المنتفخين بما قرؤوا ، أو حصلوا من علم . ولو كانوا علماء حقاً لعرفوا قدر أنفسهم . وأنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا . بل أقل من القليل .

عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحار ، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله ، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون : من أقرأ منا ؟ من أعلم منا ؟ : من أفقه منا ؟ » ثم قال لأصحابه : « هل في أولئك من خير ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال أولئك منكم من هذه الأمة ، أولئك هم وقود النار (١) . »

وإذا رزق العالم التواضع ، وقف عند حده ، وأنصف غيره ، وعرف له حقه ، ولم يتناول على الناس بالادعاء الباطل .

روى أبو عمر بن عبد البر عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس قال : لما حج أبو جعفر المنصور دعاني ، فدخلت عليه فحدثته ، وسأل فأجبته ، فقال : إنني قد عزمت أن أمر بكتيبك هذه التي وضعتها - يعنى الموطأ - فتنسخ نسخاً . ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وأمرهم أن يعملوا بما فيها ، لا يتعدوها إلى غيرها ، ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث ، فإنني رأيت أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم .

قال : فقلت : يا أمير المؤمنين لا تفعل ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وعملوا به ، ودانوا به ، من اختلاف الناس : أصحاب رسول الله - ﷺ - وغيرهم ، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه ، وما اختار كل بلد لأنفسهم .

(١) قال المنذرى في الترغيب حديث رقم (٢٢٩) : رواه الطبراني في الأوسط ، والبخاري بإسناد لا بأس به وعزاه الهيثمي إلى الطبراني في الأوسط والبخاري ورجال البخاري موثقون مجمع الزوائد : (١/١٨٦) . ورواه أبو يعلى والبخاري أيضاً من حديث العباس بن عبد المطلب . وذكر المنذرى حديثاً آخر عن ابن عباس مرفوعاً يعد شاهداً له . وقال فيه : رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن إن شاء الله تعالى .

فقال أبو جعفر : لعمرى لو طأوعنى علي ذلك لأمرت به ، قال أبو عمر بعد ذكر هذه القصة : وهذا غاية فى الإنصاف لمن فهم (١) .

وروى بسنده إلى عبد الرحمن بن القاسم أنه قال لمالك : ما أعلم أحداً أعلم بالبيوع من أهل مصر . فقال له مالك : وبم ذلك ؟ قال : بك . قال : فأنا لا أعرف البيوع فكيف يعرفونها بى !؟ (٢) .

هذا هو موقف العلماء حقاً : تواضع لله ، وإنصاف من النفس ، وتقدير لموقف الآخرين ، والتماس الأعذار لهم .

روى مسلم عن أبى هريرة أن النبى - ﷺ - قال : « إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس ، فهو أهلكهم » (٣) .

وذلك إذا دلت حاله على أنه يقول ذلك إعجاباً بنفسه ، وتيهاً بعلمه أو عبادته ، واستصغاراً لشأن الآخرين ، وازدراء لما هم عليه .

وقد رويت كلمة (أهلكهم) بضم الكاف وفتحها ، ومعناها علي الضم ، أنه أشدهم هلاكاً ، أو أحقهم بالهلاك ، أو أقربهم إليه ، لذمه للناس وذكره عيوبهم ، ونسيانه عيوب نفسه ، وتكبره عليهم . وأما بالفتح فهو فعل ماض «أهلكهم» ، أى جعلهم هالكين لا أنهم هلكوا حقيقة ، أو أهلكهم ، لأنه أقنطهم من رحمة الله ، وأياسهم من غفرانه .

قال الغزالي : إنما قاله ، لأن هذا القول يدل على أنه مزدر لخلق الله ، مغتر بالله آمن من مكره ، غير خائف من سطوته ، وقهره ، حيث رأى الناس هالكين ورأى نفسه ناجياً ، وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك . ويكفيه شراً احتقار الغير . فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله ، فهم يتقربون إلى الله بالدنو منه ، وهو متمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم ، بأنه يترفع عن مجالستهم ، فما أجدره بالهلاك (٤) .

(١) « جامع بيان العلم » ج ١ ص ١٥٩ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) رواه مسلم فى البر والصلة (٢٦٢٣) .
(٤) فيض القدير : ١ / ٣٧٨ .

٤- العزّة :

ومن أخلاق العلماء : العزّة التي هي من أخص فضائل المؤمنين ﴿ وَلِلّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ، والعلماء هم صفة المؤمنين .

والعزّة شيء غير الغرور أو العجب أو الكبر ، وهي لهذا لا تنافى فضيلة التواضع التي تحدثنا عنها .

هي عزّة في مواجهة المستكبرين بالسلطان ، أو المتعاليين بالثروة ، أو المزهوين بالقوة ، أو المفاخرين بالنسب ، أو المكاثرين بالعدد ، أو غير ذلك من أعراض الدنيا .

فهي عزّة بالعلم والإيمان ، وليست عزّة الإثم والعدوان ، عزّة تلتمس من الله ولا تطلب من الناس ، ولا عند أبواب السلاطين ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠] .

سأل الحجاج خالد بن صفوان : من سيد البصرة ؟ فقال له : الحسن البصرى فقال : وكيف وهو مولى ؟ أى ليس من قبائل العرب ذوى الحسب . فقال : احتاج الناس إليه فى دينهم ، واستغنى عن الناس فى دنياهم ، وما رأيت أحداً من أشرف أهل البصرة إلا وهو يروم الوصول فى حلقة إليه . يستمع قوله ويكتب علمه قال : هذا والله السؤدد (١) .

والاستغناء شعور قبل أن يكون ملكاً لأشياء ، فإن من الناس من يملك القناطر المقنطرة ، وهو فقير النفس ، ممدود اليد إلى الغير ، وآخر صفر اليدين ، وهو يشعر بأنه أغنى من قارون . وفى الحديث : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس » (٢) . وهو الذى عبر عنه أبو فراس الحمدانى فى قصيدة له حين قال :

إن الغنى هو الغنى بنفسه ولو أنه عارى المناكب حاف!
ما كل ما فوق البسيطة كافيا وإذا قنعت فبعض شئ كاف!

(١) « جامع بيان العلم » ج ١ / ٧٤ و ٧٥ .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة . اللؤلؤ والمرجان : (٦٢٤) .

هذا الغنى النفسى هو الذى صوره الإمام الشافعى فى أبيات رائعة من شعره

القوى العميق حيث يقول :

أمطرى لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضى آبار تبريز تبراً!
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبراً!
همتى همة الملوك ، ونفسى نفس حر ترى المذلة كفراً!
وإذا ما قنعت بالقوت عمري فلماذا أهاب زيداً وعمراً!؟

ولما دخل أبو حازم على الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك بطلب منه وسأله فأجابه بقوة المؤمن ، وعزة العالم ، دون مجاملة فى الحق ، ولا مدهانة فى الدين ، فأعجب به الرجل ، وقال له :

هل لك أن تصحبنا - يا أبا حازم - فتصيب منا ونصيب منك ؟ قال :
أعوذ بالله ! قال له سليمان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن شيئاً قليلاً ،
فيذيقنى الله ضعف الحياة ، وضعف الممات ... وقال له سليمان : ارفع إلينا
حوائجك - قال : تنجينى من النار وتدخلى الجنة ! قال : ليس ذلك إلى . قال :
فما لى إليك حاجة غيرها (١) .

هذه هى عزة العلماء ! عزتهم لأنهم يحفظون فى صدورهم كلمات الله ،
ويحملون فى أيديهم مصابيح الهداية ، ويملكون فى خزائن قلوبهم أغلى
الكنوز ، وأثمن الثروات ، وأشرف الموارث ، وهو تراث النبوة ، التى بغيرها
يعيش الخلق فى تيه المادية ، وظلام الجاهلية ، وضلالات الأهواء والأوهام . فمن
أقوم منهم قليلاً ، وأهدى سبيلاً ؟

ولهذا روى فى الحديث : « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما
أوتى فقد استصغر ما عظم الله تعالى » (٢) .

(١) أخرجه الدارمى فى سننه ج ١ / ١٢٥ .

(٢) قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن

عمر بسند ضعيف .

وإذا كانت النبوة أشرف الموارث التي تنقطع دونها أمانى الخلق ، فإن المرتبة التي تليها في الشرف والفضل هي رتبة وارثها ، وهم العلماء .
ويقول عمرو بن العاص : من قرأ القرآن ، فقد أدرجت النبوة بين جنبيه ، إلا أنه لا يوحى إليه !

ومفهوم كلمة «قرأ القرآن» في الحديث ، وفي عرف الصحابة والقرون الأولى لا يعنى مجرد استظهاره ، وحفظ كلماته وحروفه دون تدبره ، ولا فهم لمعانيه وأساره ، وأحكامه ، إنما تعنى القراءة : العلم والفقه ، ولهذا كان العلماء يسمونهم (القراء) :

وقال أبو الأسود : ليس شئ أعز من العلم ، الملوك حكام علي الناس والعلماء حكام علي الملوك .

أخذ هذا المعنى أحد الشعراء فقال :

إن الأكابر يحكمون علي الورى وعلي الأكابر يحكم العلماء !

وهذا هو الوضع الصحيح للعلماء : أن كلمتهم هي العليا ، لأنها قيس من كلمة الله ، هم الموجهون للحياة وللناس ، إلا إذا انقلبت الأوضاع ، ورضى العلماء أن يسيروا في ركاب الأمراء . ورحم الله القاضى الجرجانى الذى قال :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ، ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

٥- العمل بمقتضى العلم :

ومن أخلاقيات العلم الأصيلة في الإسلام : العمل بمقتضى العلم ، علي معنى أن يكون هناك صلة بين العلم والإرادة ، فإن آفة كثير من الناس أن يعلم ولا يعمل ، أو يعمل بصد ما يعلم .

كالطبيب الذي يعرف ضرر مأكول أو مشروب علي صحته ، ولا يفتأ يتناوله استجابة لداعى الشهوة أو العادة . كالأطباء الذين يحاضرون في أضرار التدخين ، وهم مسرفون في تعاطيه !

وعالم الأخلاق الذى يرى سلوكاً معيناً رذيلة وهو مقيم عليه ، متماد فيه ، وعالم الدين الذى يرى عملاً ما منكراً ، وقد ينهى الناس عنه ، وهو يقترفه!

إن هذا النوع من العلم النظرى البحت لا يرضى عنه الإسلام . وربما كان الجهل فى تلك الحال خيراً منه .

إن العلم الحق هو الذى ينير بصيرة صاحبه ، ويجسم أمام عينيه الجزاء ، فيبدو البعيد قريباً . والغائب حاضراً ، والآجل ناجزاً ، فتقوى عزيمته على البر والتقوى ، وتضعف رغبته فى الإثم والفجور .

وقد جاء فى حديث أبى كبشة الأمارى عن النبى - ﷺ - قال :

« إنما الدنيا لأربعة نفر :

١- عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتقى فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم الله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل .

٢- وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، فأجرهما سواء .

٣- وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً : يخبط فى ماله بغير علم ، ولا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم الله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل .

٤- وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء »^(١) .

وهنا نرى أثر العلم واضحاً فى سلوك صاحبه فى ماله ، فهو « يتقى فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم الله فيه حقاً » فهذا هو الغنى الشاكر ، وهو بأفضل المنازل كما جاء فى الحديث .

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٣١) والترمذى فى الزهد (٢٣٢٦) واللفظ له وقال : حديث

حسن صحيح . الترغيب حديث رقم (٢٠) .

فإذا حرم المال ورزق العلم عاش والخير ملء جوانحه ، لا يمارسه عملاً ،
ولكن يعيشه نية وأملاً . فهو بنيته ، فأجره وأجر الغنى الشاكر سواء .

فأما من حرم العلم ، سواء رزق المال أم لا ، فعاقبته ما ذكر الحديث
الشريف : أخبث المنازل . سواء عاش فى السوء أم بنيته .

والعلم هنا ليس تحصيل معلومات سطحية من هنا وهناك ، ولكنه نور
يقذفه الله فى قلب عبده ، فيمنحه اليقين والرسوخ ، ويبعد به عن القلق
والاضطراب ، وهذا هو العلم النافع .

العلم النافع حقاً هو الذى يرى الناس أثره على صاحبه : نوراً فى الوجه ،
وخشية فى القلب ، واستقامة فى السلوك ، وصدقاً مع الله ، ومع الناس ، ومع
النفس .

أما مجرد التشدق بالكلام المزوق ، والثرثرة بالقول المعسول من طرف
اللسان ، دون أن يصدق القول العمل ، فهذا هو شأن المنافقين الذين يقولون مالا
يفعلون ، ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، وهم يتلون الكتاب ، ويقرؤون
الأحاديث .

وهو ما أنكره القرآن على بنى إسرائيل : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ
أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] .

كأنما يشير القرآن أن مناقضة العلم للعمل ، والقول للفعل ، ضرب من
الجنون ، أو لون من الفصام الذى لا يليق بالعقلاء . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾
[الصف: ٢، ٣]

ومن قرأ الأحاديث النبوية فى هذا الباب ينخلع قلبه من هول الوعيد الذى
يتهدد هذا الصنف من حملة العلم ، الذين سماهم الإمام الغزالى : « علماء
الدنيا » .

عن أسامة بن زيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يجاء بالرجل يوم القيامة

فيلقى فى النار، فتندلق أقتابه (١)، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان، ما شأنك؟ أأنت كنت تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟! فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن الشر وآتية» (٢).

وعن أنس: وإنى سمعته يقول - يعنى النبى ﷺ - «مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفاهم بمقاريض من نار. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون» (٣).

هؤلاء الذين يُحسنون الكلام ولا يحسنون العمل، ويتنسبون إلى العلم ولا يقومون بحقه. يكونون فتنة على الأمة، لأنهم موضع القدوة.

وهناك صنفان إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، الأمراء والعلماء (٤). ورحم الله الشاعر الذى قال:

يا أيها العلماء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملحُ فسد؟!!

وهذا ما كان يخافه النبى ﷺ على أمته، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: حذرنا رسول الله - ﷺ - كل منافق عليم اللسان (٥).

وعن عمران بن حصين عن النبى ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم اللسان» (٦).

وعن على بن أبى طالب مرفوعاً: «إنى لا أتخوف على أمتى مؤمناً ولا مشركاً. فأما المؤمن فيحجره إيمانه، وأما المشرك فيقمعه كفره،

(١) أقتابه: أمعاؤه... وتندلق: تخرج من مكانها.

(٢) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (١٨٨٢). (٣) رواه أحمد (١٢٠/٣).

(٤) روى هذا مرفوعاً من حديث ابن عباس بسند ضعيف، أخرجه ابن عبد البر، وأبو نعيم فى الحلية، كما قال العراقى فى تخريج الإحياء.

(٥) قال الهيثمى فى «المجمع» (١٨٧/١): رواه الزار، وأحمد، وأبو يعلى ورجاله موثقون. وقال الشيخ شاکر: إسناده صحيح. انظر: الحديث (١٤٣) و(٣١٠) من المسند.

(٦) رواه الطبرانى فى الكبير، والبخارى ورواه محتج بهم فى الصحيح المجمع (١٨٧/١) كما فى «الترغيب» حديث (٢٢٤).

ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان . يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون» (١).

وعن جابر قال : قال رسول الله - ﷺ - « العلم علمان : علم فى القلب ، فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان ، فذلك حجة الله على ابن آدم » (٢).

فعلم المرء إما حجة له - وذلك إذا عمل به - وإما حجة عليه إذا أصبح مجرد حامل له شأن اليهود الذين حملوا التوراة كلاماً ، ولم يحملوها عملاً والتزاماً ، فكانوا كما قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة : ٥] أو كذلك الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها ، ولم يرتفع بها من حضيض المادية فى التفكير والحيوانية فى السلوك ، ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ [الأعراف : ١٧٦] .

ومن ثم كان رسول الله - ﷺ - يستعيد بالله من العلم الذى لا ينفع وهو العلم الذى ينفصل عن الأخلاق ، لأنه يصبح وبالأعلى صاحبه ، وقد يكون وبالأعلى من حوله كذلك .

فعن زيد بن أرقم أن رسول الله - ﷺ - كان يقول : (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها) (٣) .

هذا النوع من العلماء الذين تكذب أفعالهم أقوالهم ، وسريرتهم

(١) قال فى (الترغيب) رقم (٢٢٣) ، رواه الطبرانى فى الصغير ، والأوسط من رواية الحارث وهو الأعور - وقد وثقه ابن حبان وغيره . ١ هـ ، والحارث ضعيف ولكن يشهد له الحديثان قبله .

(٢) قال فى الترغيب (١٣٩) : رواه الحافظ أبو بكر الخطيب بإسناد حسن . وابن عبد البر فى كتاب العلم عن الحسن مرسلًا بإسناد صحيح .

(٣) رواه مسلم فى الزهد والدعاء والتوبة (٢٧٢٢) .

علانيتهم، يمثلون فتنة لجمهور الناس، لأن الناس يتأثرون بالحال أكثر من التأثر بالمقال، حتى قيل: حال رجل في ألف رجل أبلغ من مقال ألف رجل في رجل.

ومهما حاولت أن تقول للناس: خذوا من العالم علمه، ودعوا عمله. أو كما قال الشاعر:

اعمل بعلمي وإن قصرت في عملي ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري!
فإن الناس لن يسمعوا لك.

وفي هذا روى عن الإمام على رضي الله عنه قوله: «قصم ظهري رجلان: جاهل متنسك، وعالم متهتك. ذاك يغرمهم بتنسكه، وهذا يضلهم بتهتكه!» ويزداد خطر هذا الصنف إذا أصبحوا أبواقاً لأمراء السوء، وحكام الجور، يزينون لهم قبيح ما يصنعون، ويجرئونهم بفتاويهم على التماذي فيما هم فيه سائرون.

وهذا ما أفسد الأديان من قبل، وما شكى منه المخلصون المصلحون من بعد يقول الإمام عبد الله بن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوكُ وأحبار سوء ورهبانها
لقد رتع القوم في جيفة يبين لذي اللب إنتانها
وفي حديث رواه أبو الدرداء مرفوعاً:

«أنزل الله في بعض الكتب، أو أوحى إلي بعض الأنبياء: قل للذين يتفقهون لغير الدين، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الكباش (جلود الضأن) وقلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر. إياي يخادعون، وبى يستهزؤون: بى حلفت لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران (١).

(١) «جامع بيان العلم» ج ١ ص ٢٣١/٢٣٢.

الحرص على نشر العلم:

ومن أخلاق العلماء: الحرص على نشر العلم وتبليغه ونفع الناس به، فلا خير في علم يكتنم، كما لا خير في مال يكتنز، فإنما جعل العلم لينشر، كما جعل المال لينفق.

وكان النبي - ﷺ - يحض أصحابه على تبليغ ما يسمعون منه، لينتفع به من بعدهم زماناً، ومن وراءهم مكاناً، ففي حجة الوداع ألقى بيانه العظيم عن الإسلام ثم قال في ختامه: «ليبلى شاهد منكم الغائب»، (متفق عليه من حديث أبي بكر).

وفي حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي - ﷺ - : «بلغوا عني ولو آية» رواه البخاري في صحيحه باب ما ذكر عن بنى إسرائيل. وروى ابن مسعود مرفوعاً «نضر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع»^(١).

وعن زيد بن ثابت مرفوعاً: «نضر الله امرأً سمع منا حديثاً فبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه»^(٢).

وهذه الأحاديث وما في معناها هي التي جعلت الصحابة - رضی الله عنهم - يحرصون على تبليغ ما يحملون في صدورهم من علم النبوة، حتى إن أبا ذر نهاه الخليفة الثالث عثمان عن الفتيا، ولكنه - رغم إيمانه بوجوب طاعة الإمام - رأى أن طاعته في هذا الأمر خاصة غير ملزمة، لأن أمر الرسول بالتبليغ أقوى من نهى الإمام عن الفتيا.

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٥٩) وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٦٦) ومعنى نضره: جملة وزينه من النضرة وهي البهجة والحسن كما في الترغيب حديث ١٥٠.

(٢) رواه أبو داود في العلم (٣٦٦٠) والترمذي في العلم (٢٦٥٨) وقال: حديث حسن وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٦٧).

ولما اجتمع عليه الناس في موسم الحج يستفتونه وقف عليه رجل من قريش، ثم قال له: ألم تُنه عن الفتيا؟

فرفع رأسه إليه فقال: أرقيب أنت علي؟ لو وضعتم الصمصامة (يعنى السيف الصارم الذى لا ينثنى) على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من النبى - ﷺ - قبل أن تجهزوا على لأنفذتها»^(١).

ويقوى موقف أبى ذر: الآيات والأحاديث التى حذرت أبلغ التحذير من كتمان العلم، واحتجازه عمن ينتفع به من الناس وخصوصاً عند الطلب والسؤال.

وكان أبو هريرة يقول: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدثت حديثاً. ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ لَكُمْ أَنْتُمْ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وروى أبو هريرة عن النبى - ﷺ - قال: «من سئل عن علم فكتمه أجم يوم القيامة بلجام من نار»^(٢).

(١) رواه البخارى معلقاً فى كتاب العلم من صحيحه. وقال الحافظ فى الفتح ١/ ١٧٠: رويناه موصولاً فى مسند الدارمى وفى الحلية. ومعلوم أن ما علقه البخارى بصيغة الجزم له حكم الصحة لدى جمهور العلماء.

(٢) رواه أبو داود فى العلم (٣٦٥٨) والترمذى فى العلم (٢٦٥١) وحسنه، وابن ماجه فى المقدمة (٢٦١) وابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان (٩٥)، الترغيب / حديث (١٩٩).

ونحوه من حديث ابن عباس أيضاً^(١).

ومن حديث عبد الله بن عمرو: «من كتم علماً أجمه الله...»
الحديث^(٢).

قال الإمام ابن الأثير في «جامع الأصول»:

المسك عن الكلام ممثّل بمن أجم نفسه بلجام.

والمعنى: أن الملقم نفسه عن قول الحق والإخبار عن العلم، يعاقب في
الآخرة بلجام من نار.

وذلك في العلم الذي يلزمه تعليمه إياه، ويتعين عليه فرضه، كما رأى
كافراً يريد الإسلام فيقول: علموني: ما الإسلام؟ وما الدين؟ وكمن جاء مستفتياً
في حلال، أو حرام، فيقول: أفتونى، أرشدونى، فإنه يلزم في مثل ذلك أن يعرف
الجواب، فمن منعه استحق الوعيد، وليس الأمر كذلك في نوافل العلم التي لا
يلزم تعليمها^(٣).

وإنما قال ابن الأثير ما قال، لأن وقت العالم وجهده لا يتسعان لتبليغ كل
علم وإجابة كل سائل، فحاجة المتعلم، وأهلية العالم، وطاقته، وأهمية الموضوع،
ووجود من يقوم بالأمر عداه أو عدمه، كل هذا يحدد: متى يجب الجواب ومتى
لا يجب.

وإني أُلح في الحديث أن الوعيد إنما هو لمن أجم نفسه عن الكلام، أى:

(١) رواه أبو يعلى، ورواته ثقات يحتج بهم في الصحيح والطبراني في الكبير
والأوسط بسند جيد الترغيب (٢٠١) كما قال الهيثمي في المجمع (١/١٦٣) ولم يذكر
الأوسط.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٩٦) والحكام وقال: صحيح لا غبار
عليه. الترغيب حديث ١٠٠ وذكر المنذرى أن حديث الوعيد على كتمان العلم قد روى عن
جماعة من الصحابة غير من ذكر منهم.

(٣) جامع الأصول ج ٨ ص ١٢ حديث رقم (٥٨٣٧).

تعمد السكوت طمعاً أو خوفاً من الناس وبهذا يكتم الشهادة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وهذا ما أنكره القرآن على أهل الكتاب ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

على أن نوافل العلم أيضاً يلزم نشرها، وتبليغها لأهلها بأى وسيلة من وسائل النشر والتبليغ شفاهاً أو كتابة، فالقلم أحد اللسانين، ولا سيما إذا جاء من يطلبها حرصاً عليها ورغبة فيها، فلا يسع من يحملها إلا أن يؤديها كما أدت إليه، حتى يتوارث العلم ويحيا.

وهذا من فروض الكفاية.

وقد يتعين على بعض العلماء لأهليته الخاصة للإفادة.

ولهذا كان بعض الصحابة يبلغون بعض أحاديث سمعوها من رسول الله ﷺ وخشوا أن يفهمها الناس على غير وجهها، فيخبرون بها في اللحظات الأخيرة من حياتهم تأثماً، وتحرجاً، أن يموتوا فتموت الحقيقة العلمية معهم. فعن أبي أيوب الأنصاري أنه قال حين حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ - وسوف أحدثكموه وقد أحيط بنفسى سمعته يقول «لولا أنكم تذنوبون لذهب الله بكم وخلق خلقاً يذنبون فيغفر الله لهم»^(١).

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ - ومعاذ رديفه على حمار قال: «يا معاذ بن جبل»: قال: لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاثاً - قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على

(١) أخرجه مسلم في التوبة حديث رقم (٢٧٤٨)، والترمذى في كتاب الدعوات

(٣٥٣٣) وروى مسلم نحوه من حديث أبي هريرة أيضاً رقم (٢٧٤٩).

النار». قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «إذن يتكلموا...» وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً^(١).

وهكذا كان تلاميذ الصحابة ومن تبعهم بإحسان أحرص الناس على نشر العلم وتعليمه ومدّ أشعته في الناس، فإذا لم يجدوا من يأخذ عنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، أو فكروا في الرحيل إلى بلد آخر.

قال عطاء: دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألني عن شيء!

وحكوا عن سفيان الثوري: أنه لما قدم عسقلان مكث لا يسأله إنسان... فقال: اكروا لي، (أي راحلة) لأخرج من هذا البلد. هذا بلد يموت فيه العلم.

وذكر ذلك الغزالي في «الإحياء» ثم قال: إنما فعل ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به.

مسائل وملاحظات تتعلق بكتمان العلم ونشره:

وهنا عدة مسائل «تتعلق» بكتمان العلم ونشره، ينبغي لنا أن نعرض لها، ونلقى بعض الضوء عليها.

متى يجوز حجب بعض المعلومات؟

الأولى: إن من حق العالم أن يحجب بعض المعلومات عن بعض الناس، لمصلحة يراها ولو سئل عنها، لما يترتب على بثها من ضرر أكبر من نفع العلم بها.

وقد يدع الجواب عن مسألة تأديباً للسائل المتعنت، أو إرشاداً له إلى الاشتغال بما هو أهم وأنفع، أو غير ذلك من الاعتبارات.

(١) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان: (٢٠).

وفى الصحيح: « كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع »^(١).

وعن أبى هريرة قال: حفظت من رسول الله - ﷺ - وعائين فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم^(٢) يكنى بذلك عن القتل.

قال الحافظ ابن حجر: حمل العلماء الوعاء الذى لم يبثه على الأحاديث التى فيها تعيين أسامى أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم.

وقد كان أبو هريرة يكنى عن بعضه ولا يصرح به خوفاً على نفسه منهم كقوله: «أعوذ بالله من رأس الستين، وإمارة الصبيان» يشير إلى خلافة يزيد، وقد استجاب الله له فمات قبلها بسنة^(٣).

حكم إعارة الكتب:

الثانية: قال بعض العلماء: يشمل الوعيد - على كتمان العلم - حبس الكتب عن الطالب لا سيما عند عدم التعدد. قال: والابتلاء بهذا كثير^(٤) اهـ.

ومقتضى هذا وجوب إعارة الكتب لطلاب العلم إذا احتاجوا إليها، ذلك

(١) رواه مسلم فى مقدمة صحيحه (٥). (٢) رواه البخارى فى كتاب العلم (١٢٠).

(٣) نقل الحافظ أيضاً عن ابن المنير قوله: جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم، حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهراً وباطناً، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين، قال: وإنما أراد أبو هريرة بقوله: «قطع...» أى قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعالهم، وتضليله لسعيهم، ويؤيد ذلك أن الأحاديث المكتومة لو كانت من الأحكام الشرعية، ما وسعه كتمانها، لما ذكره فى الحديث الأول من الآية الدالة على ذم من كتم العلم وقال غيره: يحتمل أن يكون أراد - مع الصنف المذكور - ما يتعلق بأشراط الساعة وتغير الأحوال والملاحم فى آخر الزمان، فينكر ذلك من لم يألفه، ويعترض عليه من لا شعور له به «أهد» الفتح» ج ١ / ٢٢٧ طبعة الحلبي.

(٤) نقله العلامة القارى فى شرح «المشكاة» عن السخاوى فى «المقاصد الحسنة» انظر

المرفقة ج ١ / ٢٣٥.

لأن منعها - فيما أرى - يدخل أيضاً في باب منع الماعون، المتوعد عليه بالويل في كتاب الله. وهو أيضاً أشبه بكنز المال، وعدم الإنفاق منه في سبيل الله، وفيه من الوعيد ما فيه. ولكن وجوب هذا في رأيي مقيد بشروط:

(١) أن يكون طالب الكتاب في حاجة حقيقية إليه لا يغنى عنه

غيره.

(٢) ألا توجد مكتبات عامة يمكنه استعارة الكتاب منها خارجياً أو

داخلياً.

(٣) ألا يستطيع شراء الكتاب، لعدم وجوده في السوق، أو لعجزه عن

شراؤه.

(٤) ألا يكون معروفاً بالإهمال وإضاعة الكتب أو تعريضها للتلف.

(٥) ألا يكون صاحب الكتاب في حاجة إليه، لأن حاجته مقدمة

على حاجة غيره. وفي الحديث: «ابدأ بنفسك» وفي آخر «ابدأ بمن

تعول».

حق التأليف والنشر:

الثالثة: ذهب بعض العلماء في عصرنا إلى أن من موجب الكتمان

المحرم أن يمنع المؤلف نشر كتابه إلا بإذن منه، وتعاقده معه، وأخذ أجره عليه،

وإنما يجب أن يمنحه لمن شاء طبعه، ونشره دون حجر ولا احتكار، وبغير

مقابل.

وأنكروا ما اصطلاح الناس في عصرنا على تسميته حقوق التأليف أو النشر

أو التوزيع وهذه قضية هامة وعامة، تحتاج إلى تمحيص وتحقيق، لم أفرغ له.

ويشبه الكلام في هذا الموضوع - إلى حد كبير - ما ثار من جدل قديم بين

الفقهاء حول القربات الدينية وأخذ الأجره عليها مثل: الأذان والإمامة في

الصلوات، وخطبة الجمعة، والوعظ والتذكير بالمساجد، ونحوها، مما هو في

الأصل واجب ديني يجب على المسلم أن يفعله احتساباً، ويقوم به من غير مقابل

مادى، تقريباً إلى الله تعالى بأداء الواجب.

وقد انتهى هذا الجدل والخلاف باتفاق المتأخرين من علماء المذاهب على جواز أخذ الأجرة، لتغير الزمان، وخوفاً على هذه الأعمال الدينية أن تتعطل، ولا تجد من يتطوع للقيام بها، فاقترضت مصلحة الدين وعمارة بيوته واستمرار إقامة شعائره، إباحة أخذ الأجرة.

على أن مما يجب التنبيه عليه هنا جملة أمور:

أولاً: أن الكتاب ملك لمؤلفه، ولهذا ينسب إليه، ويحسب عليه، ويحاسب على أخطائه. وملكيته هنا ملكية علمية أدبية. وهو أمر اعترف به العالم كله في قوانينه المدنية.

ولا ريب أن من ملك شيئاً أصبح حر التصرف فيه، وأصبح من حقه الانتفاع بثمراته، وهذه من لوازم الملكية. فإذا كان من يملك بيتاً له الحق أن يسكنه أو يؤجره أو يبيعه، فكذلك من يملك كتاباً.

ثانياً: أن الكتاب العلمي لا يأتي عفواً، وإنما هو ثمرة كفاح طويل، كون به صاحبه شخصيته العلمية، ثم هو نتيجة جهد جهيد، وسهر بالليل، وعرق بالنهار لا يعرفه إلا من عاناه، وربما استغرق الكتاب من صاحبه سنين حتى يبرز إلى حيز الوجود، أو قل حتى تأتي ساعة المخاض، فهو إذن كسب من وراء عمل طويل مختزن في كتابه، كما أن المصنع أو العمارة ثمرة جهد طويل. اختزنه فيها منشئ المصنع أو صاحب العمارة.

ثالثاً: أن حياة العالم المؤلف ليست حياة سهلة، كحياة سائر الناس، إنها حياة تتطلب جهداً خاصاً زائداً على جهود العاديين من الناس، كما تتطلب نفقات خاصة زائدة أيضاً على نفقات الآخرين.

فالعالم المؤلف يحتاج إلى مكتبة غنية بالمصادر المهمة ويحتاج إلى من يساعده في النقل أو التبييض أو الطباعة، ويحتاج لمن يساعده في شؤون أسرته حيث لا يمكنه أن يتفرغ لأموالهم ورعايتهم، كما يتفرغ سائر الناس. وبدون هذا لا يستطيع أن ينتج علماً حقيقياً. فأنى له أن يغطي هذه النفقات، وإن كان

موظفًا فى جامعة أو وزارة أو مؤسسة، إن لم يكن له من مؤلفاته ما يعطيه بعض العوض؟.

رابعاً: أن المؤلف قد يصدر طبعة من كتاب، ثم يتراءى له بعد صدوره أشياء تقتضيه أن يضيف أو يحذف أو يعدل، بناء على اطلاع جديد أو تغير اجتهاد أو اقتراح مقبول، أو غير ذلك .

فإذا لم يعلم الطابع أو الناشر ماذا عند المؤلف من تعديلات، وتنقيحات فإنه سينشر الكتاب على ما كان عليه، ويلزم المؤلف ما لم يعد يلتزمه .

وقد كان علماؤنا قديماً لا يستبيحون رواية كتاب عالم ما إلا (بإجازة) منه، وقد كان بعض العلماء يعطى بعض طلابه (إجازة خاصة) برواية كتاب معين . وأحياناً يمنحه (إجازة عامة) برواية كتبه كلها .

وهذه الإجازة تشبه حق الطبع أو النشر فى زمننا، أضيف إليها عنصر جديد وهو: أن المؤلف يتقاضى أجراً على جهده فى التأليف، ويشارك الناشر فى جزء من الربح الذى يصيبه من وراء نشر الكتاب .

ولكن الأمر الذى يجب تأكيده والتشديد فيه حقاً هو ألا يستغل الناشر والمؤلفون حاجة القراء إلى كتاب ما، فيغالوا فى سعره، كما فى كثير من الكتب الجامعية، والكتب التى يقبل عليها الجمهور، فزيادة الأسعار بما لا يتغابن الناس فى مثله غير مشروع .

* * *

التَّعَلُّمُ وَآدَابُهُ

ضرورة التعلم:

يولد الإنسان غفلاً من العلم، ولكن الله سبحانه وتعالى فطره على حب المعرفة واستطلاع ما يجهل، ووهب له من أدوات العلم ما يستطيع به أن يعرف نفسه ويطلع على الوجود من حوله، يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وبهذا استطاع الإنسان أن يتعلم، ويكتشف سنن الكون وحقائق الوجود عن طريق السمع والرواية، وعن طريق البصر والملاحظة، وعن طريق الفؤاد والتفكير. وهي الوسائل التي استودعها الله الإنسان، وسيسأل عنها أمام الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وبهذه الوسائل يتمكن الإنسان أن يكتسب علم الدنيا، وأن يحصل علم الدين، إذا شحذ همته لطلب العلم، ولم تشغله شواغل الدنيا عن التعلم.

هكذا قضت سنة الله: أن السماء لا تمطر على الإنسان علماً، وهو قاعد في بيته، إنما يدرك العلم من طلبه، وعانى في تحصيله.

وهذا ما نطق به الحديث النبوي الشريف: «يا أيها الناس تعلموا. إنما العلم بالتعلم، والفقہ بالفقہ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» (١).

(١) قال الحافظ في «الفتح» ج ١ ص ١٧٠: أورده ابن أبي عاصم، والطبراني من حديث معاوية وإسناده حسن، لأن فيه مبهماً، اعتضد بمجيئه من وجه آخر، وروى البزار نحوه من حديث ابن مسعود موقوفاً، ورواه أبو نعيم الأصبهاني مرفوعاً. وفي الباب عن أبي الدرداء وغيره، فلا يفتر بقول من جعله من كلام البخاري اهـ.

ولا يجوز للمسلم أن يعيش مقطوع الصلة بالعلم، فمن لم يكن عالماً، فيكون متعلماً، ومن لم يكن متعلماً فليكن مستمعاً، وإلا فليكن محباً لهؤلاء، وذلك أضعف الإيمان.

عن أبي بكرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك» قال عطاء: قال لى مسعر: «زدتنا خامسة لم تكن عندنا، والخامسة أن تبغض العلم وأهله» (١).

ما يجب على كل مسلم تعلمه:

حث الرسول ﷺ على التعلم أعظم الحث، ورجب فيه كل الترغيب، حتى جعله فريضة لازمة، وذلك في الحديث الذى اشتهر على الألسنة، حتى حفظه الكبير والصغير والخاص والعام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (٢).

أى: على كل إنسان مسلم ذكراً كان أم أنثى، ولهذا يرويه جمهور الناس... على كل مسلم ومسلمة، والمعنى صحيح، ولكن اللفظ لم يرد.

ولكن ما العلم الذى جعل الحديث طلبه فرضاً على كل مسلم؟

قد تباينت الأقوال وتناقضت الآراء، فى هذا العلم المفروض على نحو عشرين قولاً، كما يقول العلامة المناوى - فكل طائفة تقيم الأدلة على فرضية علمها هى، وكل لكل معارض، وبعض لبعض مناقض.

(١) رواه الطبرانى فى معاجمه الثلاثة والبزار ورجاله موثقون كما فى مجمع الزوائد ج

١٣٢/١.

(٢) رواه ابن ماجه فى المقدمة (٢٢٤)، وابن عبد البر فى العلم، والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث أنس، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود، وفى الأوسط عن ابن عباس، وأبى سعيد وغيرهم وفى طرقه كلها مقال، لذا وضعه ابن القطان وابن عبد البر والنوى، وغيرهم لكن قال الأخيران: معناه صحيح، لكن قال الزركشى فى اللآئى: روى من طرق تبلغ درجة الحسن، وكذا قال الحافظ المزى وقال السيوطى: جمعت له خمسين طريقاً، وحكمت بصحته لغيره، ولم أصحح حديثاً لم أسبق لتصحيحه سواه. وقال السخاوى: له شاهد عند ابن شاهين بسند رجاله ثقات عن أنس. أنظر الجامع الصغير أحاديث ٥٢٦٤، ٥٢٦٧ وتعليق المناوى عليها فى فيض القدير ج ٤ ص ٢٦٧/٢٦٨.

فمن متكلم يحمل العلم هنا على علم الكلام، ويحتج لذلك بأنه العلم المتقدم رتبة لأنه علم التوحيد، الذى هو أساس البناء.

ومن فقيهه يحمله على الفقه، إذ هو علم الحلال والحرام، وبه يعرف المسلم كيف يعبد الله، وكيف يعامل الناس، ويقول: إن ذلك هو المتبادر من إطلاق العلم فى عرف الشرع.

ومن مفسر يرى أن أولى ما يطلق عليه العلم هو العلم بالمراد من كلام الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، وهذا هو علم التفسير.

ومن محدث يحمل العلم على معرفة السنن والآثار، والتى بها بيان القرآن، وفيها تفصيل ما أجمل، وتبيين ما أبهم، وتخصيص ما عمم، وتقييد ما أطلق، وهى مع القرآن - حبل النجاة.

ومن نحوى يحمله على علم العربية، إذ الشريعة إنما تتلقى من الكتاب والسنة، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] فلا بد من إتقان العربية ليعرف البيان المشار إليه فى الآية الكريمة.

ومن متصوف يحمله على علم العبد بحاله، ومقامه من الله عز وجل، أو العلم بالإخلاص وآفات النفوس، ومداخل الشيطان إليها... إلخ.

وقال أبو طالب المكى: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذى فيه مبانى الإسلام «بنى الإسلام على خمس... إلخ» لأن الواجب هذه الخمس. فيجب العلم بكيفية العمل فيها، ويكفيه الوجوب^(١).

وهكذا تعددت الآراء، واختلفت الأقوال، ولكل وجهة هو موليتها والذى أراه أن العلم الواجب طلبه وتعلمه، عيناً - على المسلم هو ما لا بد له منه فى دينه أو فى دنياه.

أما فى دينه، فلا بد له أن يتعلم من علوم الشرع:

(١) انظر: الإحياء ج ١/ ١٤ وما بعدها وفيض التقدير ج ٤/ ٢٦٧، ٢٦٨.

١ - ما يعرف به عقيدته معرفة يقينية صحيحة، سالمة من الشكيات والخرافات .

٢ - وما يصحح به عبادته لربه ظاهراً، بأن تكون على الصورة المشروعة، وباطناً بأن تتوافر فيها النية الخالصة لله تعالى .

٣- وما يزكى به نفسه ، ويظهر به قلبه ، بأن يعرف الفضائل «المنجيات» ليتحراها ويتخلق بها ، ويعرف الرذائل «المهلكات» ليتجنبها ويتوقاها .

٤- وما يضبط به سلوكه في علاقته مع نفسه ، أو مع أسرته ، أو مع الناس ، حكماً ومحكومين مسلمين وغير مسلمين ، فيعرف في ذلك الحلال من الحرام ، والواجب من غير الواجب واللائق من غير اللائق . ولا يضيرنا أن يدخل هذا القدر اللازم تحت اسم «التوحيد» أو «الفقه» أو «التصوف» أو «الآداب الشرعية» أو الزهد أو غير ذلك .

فهذه التسميات مصطلحات محدثة ، ولم يتعبدنا الله بها ، وإنما يهمننا المضمون ، ولا عبرة بالأسماء والعناوين ، متى وضحت المسميات والمضامين . وهذا القدر من العلم يجب أن يكون إلزامياً ، يتعلمه كل مسلم ومسلمة : بالقراءة في المدارس والمعاهد ، وبالسماع في المساجد ، وفي أجهزة الإعلام المختلفة .

وعلي كل دولة تنتسب إلي الإسلام ، أن توفر هذا القدر لأبنائها بكل وسيلة مستطاعة ، وأن تنتهز كل فرصة لتفقيه أبنائها ما يجب عليهم ، مثل فرصة التجنيد في الجيش أو في الشرطة .

ويجب على الآباء والأولياء أن يعلموا أولادهم ، ومن يلون عليهم ، أو يبعثوا بهم إلى المدارس والمساجد والأماكن يتلقون فيها العلم الواجب ، ولا يجوز لولي أن يدع موليه في ظلام الجهل بدينه ، دون أن يعلمه أو يهئ له من يعلمه ، فضلاً عن أن يمنعه من التعلم إذا أراد .

وذلك أن الحديث الشريف يقول : «مرروا أولادكم بالصلاة لسبع ،

واضربوهم عليها لعشر»^(١) فدل هذا على وجوب تعلم الصلاة - ومثلها الصيام لمن يطيقه - منذ تمام السابعة من العمر : لأن أداء الصلاة غير ممكن إلا بتعلمها بشروطها وأركانها وكيفيةها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فإذا قصر الأب أو الولي في تعليم من ولاه الله رعايته ، ولم يعفه ذلك من وجوب التعلم وطلب العلم المفروض عليه ، حين يبلغ الحلم ، ويتحمل مسؤولية نفسه ، فقد رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ .

يقول الإمام أبو محمد بن حزم بعد أن بين ما يلزم كل مسلم ومسلمة تعلمه من الطهارة والصلاة والصيام ، وما يحل له ويحرم عليه من المآكل ، والمشرب ، والملابس ، والفروج ، والدماء ، والأقوال والأعمال :

« فهذا كله لا يسع جهله أحداً من الناس ، ذكورهم وإناثهم ، أحرارهم وعبيدهم وإمائهم . وفرض عليهم أن يأخذوا في تعلم ذلك من حين يبلغون الحلم ، وهم مسلمون أو من حين يسلمون بعد بلوغهم الحلم .

قال : ويجبر الإمام (رئيس الدولة) أزواج النساء ، وسادات الأرقاء ، على تعليمهم ما ذكرنا ، إما بأنفسهم ، وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم ، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك ، وأن يرتب أقواماً بتعليم الجهال »^(٢).

وهذا القدر يجب أن يتعلمه المسلم بلغته التي يحسنها ، ولكن يجب عليه أن يتعلم من العربية ما يتلو به أم القرآن في صلاته وما يقرأ به من الآيات ، وما تقوم به الصلاة من التكبيرات والتسبيحات والسلام ، وما يفهم به الأذان والإقامة ونحوها . ومن لم يجد هذا القدر اللازم تعلمه موفوراً في بلده وجب عليه أن يرحل في طلبه حتى يتعلمه من أهله ولو بالصين .

(١) رواه أحمد في مسنده (١٨٧/٢) ، وأبو داود في الصلاة (٤٩٥) من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده . وحسنه النووي في «الرياض» وصححه شاكر في تخريج المسند برقم (٦٦٨٩) كما أخرجه الحاكم في المستدرک ١/١٩٧ .

(٢) انظر : الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم - الباب الحادى والثلاثون : في صفة التفقه في الدين ، وما يلزم كل امرئ طلبه من دينه ص ٦٩ ط . مطبعة الإمام بالقاهرة .

على أن هذا القدر الواجب تعلمه إنما يمثل الحد الأدنى لمعرفة المسلم بدينه في كل بيئة وكل حال ، ثم هو يتسع ويزداد حسب الأحوال والموجبات الخاصة أو العامة ، فالفقير لا يجب عليه أن يتعلم تفاصيل أحكام الزكاة ، إلا أن يتعلم ما يباح له أخذه من مالها ، إنما يجب عليه أن يتعلم أحكامها إذا ملك مالاً تجب فيه الزكاة .

ولا يفترض عليه تعلم كل الأحكام لكل أموال الزكاة بل ما ملك نصيباً منه تعلم ما يتعلق به . فالتاجر يتعلم أحكام زكاة التجارة والنقود والديون ونحو ذلك : فمى تجب ؟ ومتى تجب ؟ وكم تجب ؟ ولمن تجب ؟ وليس عليه أن يتعلم زكاة الأنعام من إبل وبقر وغنم ، وما يجب فيه بنت مخاض أو بنت لبون ، إذ لا حاجة له فيها .

ومن لا مال له ، ولا استطاعة عنده ، لا يفرض عليه تعلم أحكام الحج ، بل يتعلمه من ملك الصحة الجسمية ، والقدرة المالية ، أى : على نفقات السفر ذهاباً وإياباً ، ونفقات الإقامة فى الأرض المقدسة ، ونفقات من يعوله حتى يعود ، فعندئذ يلزمه تعلم أساسيات الحج والعمرة ، وخاصة عندما يعقد النية ، ويدخل فى أشهر الحج . وإذا كان فى المذاهب الفقهية من يرى أن فرض الحج على التراخى ، فالأكثر يرونه واجباً على الفور ، والحزم فى المبادرة والمسارعة إلى الخيرات .

وهكذا من كان له اختصاص بشئ ، وجب عليه أن يتعلم ما يتصل به من الأحكام ، فالتاجر يلزمه معرفة ما يحل وما يحرم من البيوع ، وأنواع المعاملات والمدائبات التى تدخل فى نطاق التجارة ، حتى لا يسقط فى هوة الحرام وهو لا يدرى . وجهله ليس عذراً له .

والطبيب يلزمه معرفة ما يتعلق بمهنته ، كتحریم التداوى بالخمير ، وتحریم الإجهاض ونحو ذلك . والذى تقتضيه مهنته السفر كريان السفينة والطيار ومضيف الطائرة يلزمه تعلم أحكام السفر ورخصه .

المهم أن كل من يحتاج إلى شئ ، لاختصاصه به أو ملابسته له ، يلزمه

تعلمه وما لا فلا . على أن كل إنسان لا يخلو من وقائع في عبادته أو معاملاته ،
تتجدد له ، ولا يعرف حكم الشرع فيها ، فهنا يلزمه السؤال عنها ، بل . ينبغي
له المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً ^(١) ، قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا
أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

ففرض علي كل أحد طلب ما يلزمه .

هذا ما لا بد منه للمسلم في دينه ، وتعلمه فرض عين عليه . وأما ما لا بد
له منه في دنياه ، فيختلف باختلاف البيئات والأزمان . وأرى أن تعلم القراءة
والكتابة والحساب وسائر ما يدرس في المرحلة الابتدائية الآن - على الأقل - لازم
لكل إنسان مسلم في دنيا عصرنا حتى يكون عضواً نافعاً في المجتمع ، ولا توصم
أمتنا بالتخلف والامية في مواجهة الأمم الراقية المتعلمة .

ما يفترض تعلمه على سبيل الكفاية :

وهناك من العلوم ما يعد طلبه فرض كفاية على الجماعة ، بحيث إذا قام به
واحد أو عدد كاف سقط الحرج عن باقي الجماعة ، وإلا أثمت الجماعة عامة ،
وأولو الأمر فيها خاصة .

يقول الإمام ابن حزم : ثم فرض على كل جماعة مجتمعة في قرية أو مدينة
أو دسكرة أو حلة أعراب أو حصن ، أن ينتدب منهم - لطلب جميع أحكام
الديانة أولها عن آخرها ولتعلم القرآن كله ، ولكتاب كل ما صح عن النبي ﷺ ،
من أحاديث الأحكام أو لها عن آخرها وضبطها بنصوص ألفاظها ، وضبط كل ما
أجمع المسلمون عليه ، وما اختلفوا فيه - من يقوم بتعليمهم ، وتفقيهم من
القرآن ، والحديث ، والإجماع ويكتفى بذلك علي قدر قلتهم أو كثرتهم » .

يعنى أن الواجب طلب جميع ما ذكره ابن حزم ، إن لم يستوعبه جهد
الطالب .

(١) انظر : الإحياء ، للغزالي ، والأحكام لابن حزم السابق ذكرها .

واستدل ابن حزم لما ذكره بقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢] فالنفر المذكور فرض علي الجماعة كلها ، حتى يقوم بها بعضهم فيسقط عن الباقين . ثم قال : وفرض على جميع المسلمين أن يكون في كل قرية أو مدينة أو حصن من يحفظ القرآن كله ، ويعلمه الناس ويقرئه إياهم ، لأمر رسول الله ﷺ بقراءته (١) .

والظاهر أن فرض الكفاية هنا : هو كل ما تحتاج إليه الجماعة المسلمة في دينها أو دنياها ، من التبحر في علوم الشرع أو التخصص في علوم الكون : من طب ، وهندسة ، ورياضة ، وفلك ، وكيمياء ، وطبيعة ، وإحياء ، وجيولوجيا أو غيرها ، من كل ما تتطلبه حياة الناس الاجتماعية في هذا العصر مدنياً أو عسكرياً .

بل كل ما يحتاج إليه المسلمون من العلوم ، ليتحقق لهم التفوق على غيرهم ، وتكون لهم القوة علي عدوهم ، فهو فرض عليهم على الكفاية ، والتفريط فيه يصيب الأمة كلها بالحرَج والإثم . وقد يتعين فرض الكفاية في حق بعض الناس إذا دعاه إليه من له الأمر ولا عذر عنده أو كان عنده من الأهلية ما ليس عند غيره ، وعلم ذلك من نفسه ، ولم يحل دونه حائل .

والأصل في ذلك : أن كل ما يؤدي إلي ضعف الأمة ، يجب دفعه قبل وقوعه ، ورفع إن وقع . وأن كل ما يؤدي إلي قوة الأمة واستقرارها ، وحمايتها من الأخطار الداخلية والخارجية ، يجب تحصيله عليها بالتضامن ، وأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ويقول الإمام الغزالي في بيان العلم الذي هو فرض كفاية :

اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم ، والعلوم بالإضافة إلي الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى : شرعية وغير شرعية ، وأعني بالشرعية

(١) الإحكام لابن حزم ص ٦٩٠ / ٦٩١ .

ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغة ، فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود ، وإلى ما هو مذموم ، وإلى ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب ، وذلك ينقسم إلي ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة .

أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضرورى في حاجة بقاء الأبدان ، والحساب ، فإنه ضرورى في المعاملات ، وقسمة الوصايا ، والمواريث وغيرهما . وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد . (أى : أثموا) ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا : إن الطب والحساب من فروض الكفايات ، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفاية كالزراعة ، والحياكة ، والسياسة بل الحجامة والحياطة . فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم ، وخرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك . فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ، وأرشد إلى استعماله ، وأعد الأسباب لتعاطيه ، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله . وأما ما يعد فضيلة . لا فريضة ، فالتعمق في دقائق الحساب ، وحقائق الطب ، وغير ذلك مما يُستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه .

وأما المذموم : فعلم السحر ، والطلسمات ، وعلم الشعوذة والتلبيسات .
وأما المباح منه : فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها ، والتواريخ والأخبار وما يجرى مجراه (١) . أهـ .

وفى بعض ما ذكره الإمام أبو حامد هنا نظر ، بالنسبة لعصرنا . فإن اتساع نطاق العلوم اليوم ، وانقسام كل منها إلي فروع وكل فرع إلى تخصصات دقيقة ، يخالف ما اعتبره الغزالي من باب التعمق المستغنى عنه في دقائق الحساب ، وحقائق الطب ، وعده بذلك فضيلة لا فريضة .

(١) إحياء علوم الدين للغزالي - ج ١ ص ١٧٧ .

فالواقع أن هذا التعمق اليوم أصبح لازماً لكل طب ناجح ، أو محاسبة ناجحة ، وقد تطور علم الطب ، والعلوم التي تخدمه تطوراً كبيراً ، وكذلك علم الرياضيات ، وكذلك علوم الطبيعة التي ذكر الغزالي نفسه في مقام آخر أنه لا حاجة إليها !! بخلاف الطب فإنه محتاج إليه ^(١) .

وربما كان الإمام الغزالي رحمه الله معذوراً فيما ذكره من العلوم والرياضيات في عصره ، فقد كانت ممزوجة بالفلسفة ، غير منفصلة عنها ، وكان للغزالي رأي في تلك الفلسفة وقضاياها ، مسجلة في كتابه المعروف «تهافت الفلاسفة» ، وقل من يقرأ الجانب العلمي والرياضي من الفلسفة دون أن يتأثر بالجانب الإلهي منها كما أشار إلي ذلك في «المنقذ من الضلال» . والجانب الإلهي من تلك الفلسفة خليط من الوثنية اليونانية ومن شطحات العقل البشري فيما لا تعرف حقيقته إلا بالوحي المعصوم .

وكذلك ما ذكره عن العلم بالأشعار التي لا سخف فيها ، وتواريخ الأخبار ، وما يجري مجراه ، حيث عدها من قسم المباح فحسب ، والذي يبدو لي أن معرفة الشعر والأدب العربي عامة ، ومعرفة التاريخ الإسلامي على الخصوص ، والإنساني على العموم ، من الواجبات الكفائية فلا يجوز أن تخلو الجماعة المسلمة عمن يحسنها ويوجهها وجهة الحق ، ويرد على من يستخدمها في سبيل الباطل ، كما نرى ذلك بين أتباع اليمين واليسار .

وهي كذلك سلاح من الأسلحة الثقافية للداعية ^(٢) المسلم .

بل أرى أن واجباً على الجماعة الإسلامية أن يكون فيها من يتخصص في جميع ألوان الدراسات الإنسانية المختلفة (علم النفس ، والاجتماع ، والتربية ، والاقتصاد ، والسياسة وغيرها) ، حتى يدرسها ويعرضها من منطلق إسلامي أصيل ، وفي إطار إسلامي مأمون ، ولا سيما أن هذه العلوم الإنسانية

(١) الإحياء ج ١ / ٢٢

(٢) انظر : كتابنا «ثقافة الداعية» فصول : الثقافة اللغوية والأدبية والتاريخية والإنسانية .

والاجتماعية ، هي التي تصنع فكر الأمة وذوقها ، وتلون اتجاهها وسلوك أفرادها بلونها ، فلا يجوز أن يعدها المسلمون مجرد مباح يجوز فعله وتركه ، إنما يجب عد ذلك من فروض الكفاية .

ولو رأى صاحب «الإحياء» رحمه الله ما رأينا من خطر هذه العلوم ، وتسلب حملتها على عقول الشباب ، واستغلال اليهود لها في كثير من جامعات الغرب ، ومراكز بحثه ، لغير رأيه واجتهاده ، وقضى بما قضينا ، ولكل عصر ظروفه وأحكامه .

تصحيح النية :

وأول ما يرجى من طالب العلم ، وبخاصة العلم الشرعى ، تصحيح النية ، وذلك أن يجاهد نفسه على الإخلاص والتجرد ، ويتحرى بعلمه وجه الله تعالى والدار الآخرة ، ولا يجعل همه ونيته مباحة العلماء ، أو ممارسة السفهاء ، أو مجارة الأغنياء ، أو مدهانة الأمراء ، أو جمع المال ، أو الجاه ، أو غير ذلك مما يتطلع إليه الناس من متاع الحياة الأدنى ، فيبيعون باقياً بفان ، وعظيماً بحقير ، وملكاً كبيراً بثمن قليل .

ولو جاز هذا فى طلب علوم الدنيا ، لم يجز فى طلب علوم الآخرة ، التى تحتاج أول ما تحتاج إلى تصفية السريرة ، وتجريد الهمة ، والإقبال بكلية القلب على الله تعالى .

ولقد جاء الحديث الصحيح يحمل الوعيد الشديد للثلاثة الذين أفسد الرياء أعمالهم ، ونقلهم من ديوان المخلصين الصادقين ، إلى ديوان المرائين الكاذبين فكانوا أول من تسعر بهم النار يوم القيامة .

ومن هؤلاء رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ! قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ، ليقال عالم . وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار (١) .

(١) رواه مسلم من حديث أبى هريرة فى الإمارة (١٩٠٥) .

وعن جابر قال ، قال رسول الله ﷺ « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ، ولا تخيروا به المجالس ، فمن فعل ذلك ، فالنار النار » (١) .

وعن ابن مسعود أنه قال : « كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير ، وتتخذ سنة ، فإن غيرت يوماً قليل : هذا منكر ! قليل : ومتى ذلك ؟ قال : إذا قلت أمناؤكم ، وكثرت أمراؤكم . وقلت فقهاؤكم ، وكثرت قراؤكم .. وتفقه لغير الدين ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة » (٢) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم علماً ، مما يبتغى به وجه الله تعالى ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » أى : ريحها (٣) .

وأى خسارة أكبر من أن يخسر الإنسان الجنة حتى إنه لا يجد عرفها وريحها ، وريحها يوجد من مسيرة كذا وكذا !؟ .

ومن رحمة الله تعالى - كما أفهم الحديث - أن الوعيد فيه إنما هو فيمن ليس له أى قصد أخروى ، لأنه جاء بهذا الحصر الحاسم « لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا » ومعنى هذا أن من قصد الآخرة بعلمه ، وأراد معها شيئاً من

(١) قال المنذرى : رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والبيهقى ، كلهم من رواية يحيى بن أيوب الغافقى عن ابن جريج عن أبى الزبير عنه ، ويحىى هذا ثقة قد احتج به الشيخان وغيرهما ، ولا يلتفت إلي من شد فيه . ورواه ابن ماجه ينحوه من حديث حذيفة - ترغيب رقم ١٧٩ . وقال العراقى فى تخريج الأحياء : إسناده ابن ماجه صحيح . وقال البوصيرى فى زوائد ابن ماجه : رجال إسناده ثقات (الحديث ٢٥٤) من ابن ماجه (ورواه الحاكم ، وصحح إسناده وسكت عليه الذهبى (١/ ٨٥ - ٨٦) . وهى فى ابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان (٧٧) .

(٢) رواه عبد الرزاق فى كتابه موقوفاً - ترغيب ١٨٥ .

(٣) قال المنذرى (ترغيب : ١٧٧) : رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى ومسلم . وأقول : ووافق الذهبى أيضاً (المستدرک ١٨٥/ ١) وهى فى أبى داود فى العلم (٣٦٦٤) وابن ماجه فى المقدمة (٢٥٢) وابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان (٧٨) .

الدنيا ، فلا يتناوله الوعيد المذكور ، شأنه شأن الحاج الذي يقصد إلي الحج ، ويقصد بجواره شيئاً من التجارة ، وقد تخرج من ذلك بعض الصحابة فنزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٨] .

فمدار الحكم على المقصد الأساسى : ما هو ؟ الآخرة أم الدنيا ؟ على أنهم قالوا : فرق بين من يأخذ الدنيا ليتفرغ لعمل الآخرة ، وبين من يعمل عمل الآخرة ليأخذ الدنيا . فتأمل فإنه موضع الزلل (١) .

والحديث إنما يذم من قصد بعلمه الدنيا ، لا من جاءته الدنيا بغير هذا القصد . وإنما ذم القرآن من ﴿ طَغَى ﴾ * وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [النازعات : ٣٧ ، ٣٨] وذم أيضاً من وصفه الله بقوله : ﴿ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يَرِدِ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [النجم : ٢٩] وكذلك ﴿ مَن كَانَ يَرِيدَ الْعَاجِلَةَ ﴾ في مقابل ﴿ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء : ١٨ ، ١٩] .

فالدنيا ليست مذمومة لذاتها ، كيف وقد كان كثير من العلماء الكبار أغنياء مثل الليث بن سعد ، وأبى حنيفة وغيرهما ؟ بل كان فى كبار الصحابة أغنياء ذوو ثروات طائلة مثل عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وطلحة والزبير ، من العشرة المبشرين بالجنة ، بل كان فى الأنبياء أغنياء مثل يوسف ، داود وسليمان الذين آتاهم الله النبوة والملك معاً .

والدنيا إنما ذمت هنا ، لأنها أريدت بعمل الآخرة ، وعلم الآخرة ، ولهذا قيده فى الحديث بقوله « علم مما يبتغى به وجه الله تعالى » وهو علم الدين . وكيف تذم الدنيا فى حد ذاتها وقد صح فى الحديث : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ؟ (٢)

وكيف تذم الدنيا لذاتها وهى مزرعة الآخرة ؟ . ولهذا قال العلامة القارى فى « المرقاة » : أفهم الحديث أن من أخلص قصده فتعلم الله ، لا يضره حصول

(١) المرقاة / شرح المشكاة ج ١ ص / ٢٣٥ .

(٢) رواه أحمد (١ / ١٩٧) بسند جيد كما قال العراقى فى « تخريج الإحياء » .

الدنيا له من غير قصد لها بتعلمه . بل من شأن الإخلاص بالعلم ، أن تأتي الدنيا لصاحبه راغمة ، كما ورد « من كان همه الآخرة ، جمع الله شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وتأتيه الدنيا وهي راغمة » (١) .

ومن المعروف أن معظم طلاب العلم في عصرنا ، لا يتجهون إلى العلم بنية سابقة ، ورغبة مبيتة ، بل يوجههم إليه - في صغرهم - آبائهم وأولياء أمورهم ، أو يوجههم إليه - رغماً عنهم - مجموع درجاتهم في بعض المواد أو كلها ، أو توجههم ظروف خاصة بهم مثل ألا يكون في البلد إلا لون معين من الدراسة يفرض عليهم ، رضوا أم سخطوا . ثم لا يلبثون إذا أدركوا ونضجوا أن يجدوا أنفسهم في معهد ديني ، أو مدرسة شرعية ، ولو خير اليوم ما اختار هذا الطريق فهذه دراسة بلانية ، لأن صاحبها أجبر عليها ، ولم يكن له حق الاختيار ، وإنما النية مع الاختيار .

وينبغي لمن وضعته الأقدار في هذا الموضع من تعلم الدين ودراسة علوم الشريعة ، أن يحاول من جديد إنشاء نية صالحة ، ورغبة صادقة ، وسيجد من العلم الذي يعيش في ظلاله - علم القرآن والسنة - وصحبة أهل الخير في سيرهم ، ما يعينه على تصحيح النية ، وتجريد الإرادة لله جل شأنه .

وقد رووا عن مجاهد قال : طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية ، ثم رزق الله النية (٢) .

وعن الحسن قال : لقد طلب أقوام العلم ما أرادوا به الله ولا ما عنده ، قال : فما زال بهم العلم حتى أرادوا به الله وما عنده (٣) .

وعن الثوري قال : طلبنا العلم للدنيا ، فجرنا إلى الآخرة (٤) .

وعن معمر قال : إن الرجل ليطلب العلم لغير الله ، فيأبى عليه العلم حتى يكون لله (٥) . وعلق الغزالي على هذا الأثر وأمثاله بأن هذا لا ينطبق على علم

(١) المرقاة شرح المشكاة ص ٢٣٦ وهو في سنن ابن ماجه رقم (٤١٠٥) بنحوه ، وقال في « الزوائد » : اسناده صحيح ، رجاله ثقات .

(٢) ، (٣) : سنن الدارمي ج ١ ص ٨٥ .

(٤) ، (٥) : « جامع بيان العلم » ج ٢ / ٢٨ .

الخلافيات فى الفقه ، أو الجدل فى الكلام ، بل على التفسير والحديث . لما لهما من صلة بالله واليوم الآخر ، ولما لكلام الله وكلام رسوله من أثر . يمكن أن ينتهى بصاحبه إلى الإخلاص ورجاء الآخرة ، وما عند الله عز وجل (١) .

استمرار التعلم :

والعلم بحر لا قرار له ، ولا شطآن له ، وكلما تعمق طالبه فيه ، تفتحت له فيه أبواب جديدة ، وتبينت له معالم كانت خافية ، وتحتاج إلي مزيد بحث ومزيد تحقيق .

من أجل هذا كان الواجب على حامل العلم أن ينشد الزيادة منه على الدوام ، وأن يستمر فى طلبه ما عاش ، فالعلم يحتاج دوماً إلى تجديد ونماء .
وليس بعد أمر الله لرسوله بيان : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

وقد قص علينا القرآن ، وقص علينا الرسول عليه الصلاة والسلام ، قصة موسى عليه السلام فى طلبه علم ما لم يعلم ، عند عبد الله الخضر عليهما السلام ، ولذا قال قتادة : لو كان أحد يكتفى من العلم بشئ لاكتفى موسى عليه السلام ، ولكنه قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] (٢)

ولا غرو أن شاع بين المسلمين هذه الحكمة « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » وحكمة أخرى تقول : « لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه علم فقد جهل » (٣) .

وقال ابن عباس : منهومان لا تنقضى نهمتهما : طالب علم ، وطالب دنيا وقيل لابن المبارك : إلى متى تطلب العلم ؟ قال : حتى الممات إن شاء الله .

وسئل أبو عمرو بن العلاء : حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ فقال : ما دامت تحسن به الحياة !

(١) الإحياء . (٢) « جامع بيان العلم » ج ١ / ١٢٠ .

(٣) هذه من كلام سفيان بن عيينه وليست حديثاً كما ظنها بعض الناس .

وسئل سفيان بن عيينة : من أحوج الناس إلي طلب العلم ؟ قال :
أعلمهم ، لأن الخطأ منه أقبح !

وقيل للمأمون : أيحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ فقال : إن كان الجهل يعيبه
فالتعلم يحسن به .

وقال مالك بن أنس : لا ينبغي لأحد يكون عنده العلم أن يترك التعلم ^(١) .
هذا هو مسلك المسلم : حرص على زيادة المعرفة ، واستمرار في طلب
العلم ، لا يشبع منه ، ولا يرغب عنه ، ولا يحول دون طلبه كبر سن ، ولا عظم
قدر ، حتى الممات .

وكان سلف الأمة حريصين على ألا يمر يوم دون أن يكتبوا فيه شيئاً من
العلم ، كثر أو قل وإلا عدوا هذا اليوم ضياعاً وغبناً .

وفى هذا رزى الأثر : « إذا أتى على يوم لم أزد فيه علماً يقربني من الله عز
وجل فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم » .

قال ابن القيم : وقد رفع هذا إلى رسول الله ﷺ ، ورفع إليه باطل ،
وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين .

وفى مثله قال القائل :

إذا مربى يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علماً فما هو من عمري !

وخطب على رضى الله عنه ، خطبة قال فيها : واعلموا أن الناس أبناء ما
يحسنون وقدر كل امرئ ما يحسن ، فتكلموا في العلم تتبين أقداركم .

قال الإمام ابن عبد البر : ويقال : إن قول على : « قيمة كل امرئ ما
يحسنه » لم يسبقه إليه أحد .

وقالوا : ليس كلمة أحض على طلب العلم منها : قالوا : ولا كلمة أضر
بالعلم وبالعلماء والمتعلمين من قول القائل : ما ترك الأول للآخر شيئاً ^(٢) .

(١) هذه الآثار في « جامع بيان العلم » ج ١ / ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) « جامع بيان العلم » ج ١ / ١١٩ .

الصبر على متاعب الطلب :

ومن أدب المتعلم في الإسلام : أن يوطن نفسه على احتمال المتاعب ، ومواصلة عناء النهار بسهر الليل ، والصبر على مشاق الارتحال في طلب العلم .

ولا يخفى على طالب علم ما ذكره القرآن العظيم ، وما نوه به الرسول الكريم من أمر موسى كليم الله ، ومصطفاه عليه السلام ، وارتحاله في طلب العلم عند عبد الله المعروف بـ «الخضر عليه السلام» ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [الكهف : ٦٠] ، وقطع هو وفتاه ما قطعاً من مفاوز ، ومسافات لا يعلم طولها إلا الله تعالى ، كان من أثرها ما عبر عنه موسى بقوله لفتاه : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ (١) . وكان ما كان من عودتهما مرة أخرى قافلين إلى الموضع المنشود للقاء .

وقال ابن عباس : طلبت العلم ، فلم أجده أكثر منه في الأنصار ، فكنت أتى الرجل فأسأل عنه : فيقال لى : نائم ، فأتوسد رداي ثم أضطجع حتى يخرج إلى الظهر ، فيقول : متى كنت ههنا يا ابن عم رسول الله ، فيقول : منذ زمن طويل فيقول : بئسما صنعت ، هلا أعلمتني ؟ فأقول : أردت أن تخرج إليّ وقد قضيت حاجتك » (٢) .

وكان ابن عباس يقول : ذلت طالباً ، فعززت مطلوباً .

وذكر ابن عبد البر وغيره : أن أبا أيوب الأنصارى رحل من المدينة إلى مصر ليسمع من عقبة بن عامر حديثاً سمعه من النبي ﷺ في ستر المسلم على المسلم ، فلما سمعه منه أتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة ، وما حل رحله (٣) .

(١) القصة في سورة الكهف ، وفي صحيح البخارى « كتاب العلم » (٧٤) .

(٢) سنن الدارمى ج ١ ص / ١١٤ .

(٣) رواه ابن عبد البر في « كتاب العلم »

ونحو هذا حدث لجابر بن عبد الله الأنصاري . فقد رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد (١) .

وقال سعيد بن المسيب : إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد . وحدث الشعبي رجلاً بحديث ثم قال له : خذها بغير شيء ، وقد كان الرجل يرحل فيما دونها إلي المدينة ، (وكان الشعبي بالكوفة بالعراق) .

وقال الشعبي : لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلي أقصى اليمن لسمع كلمة حكمة ، ما رأيت أن سفره قد ضاع (٢) .

ورحلات المسلمين وبخاصة علماء الحديث في طلب العلم لا يعرف التاريخ لها نظيراً ، ومن طالع رحلات الأئمة مثل الشافعي ، وابن حنبل ، والبخاري ، ومسلم وغيرهم ، عرف مبلغ ما عاناه هؤلاء الفحول في طلب العلم .

لقد بذلوا في طلبه النوم بالليل والراحة بالنهار ، وتحملوا الشظف وال فقر في سبيله غير ضجرين ولا متبرمين . فقد تلقوا عن شيوخهم هذه الحكمة : لا ينال العلم براحة الجسم . وكان الإمام مالك يقول : إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر ، وذكر ما نزل بربيعة من الفقر في طلب العلم ، حتى باع خشب سقف بيته ، وحتى كان يأكل ما يلقي علي مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر !

وقال شعبية لأصحابه : ليبلغ الشاهد منكم الغائب : من ألح في طلب العلم - أو قال في طلب الحديث - أورثه الفقر .

وقال سحنون : لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع (٣) .

(١) ذكره البخاري معلقاً مجزوماً به في صحيحه باب الخروج في طلب العلم . وذكر في الفتح (١/١٨٣) له طرقاً بعضها عند أحمد ، وأبي يعلى والطبراني في مسند الشاميين ولا تخلو من مقال ، وعند تمام في فوائده من طريق إسنادها صالح .

(٢) « جامع بيان العلم » وباب الرحلة في طلب العلم .

(٣) ذكر هذه الآثار ابن عبد البر في : « جامع بيان العلم » باب الحضر على استدامة

الطلب والصبر على الأذى والنصب .

وليس المهم في طلب العلم محض تعب البدن ، بل أهم منه تفرغ القلب له بالتقليل من شواغل الدنيا المادية ، وصوارف الحياة الاجتماعية ، فإن العلائق شاغلة وصارفة . وقد قال تعالي : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب : ٤]

ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق . ولذلك قالوا : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر .

قال الغزالي : والفكرة المتوزعة علي أمور متفرقة كجدول تفرق مأؤه ، فنشفت الأرض بعضه ، واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع .

فهذه نظرتهم للعلم ، وهذه كانت حياتهم في طلبه . وكانوا قريرى العين بها ، فإن لذة معرفة الحقيقة تنسى مشقة الحصول عليها . وقد قيل لأحد العلماء : فيم لذتك ؟ فأجاب في حجة تتبختر اتضاحاً ، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً !

ومن الصبر المحمود ، والمطلوب لطالب العلم : أن يصبر على أستاذه ، ويحتمل شدته إن كان شديداً ، وغضبه إن كان غضوباً ، ويحترم صمته فيما لا يحب الكلام فيه . وخير مثل لذلك هو صبر موسى علي الخضر عليهما السلام ، قال له موسى : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَنَ مِمَّا عَلَّمْتَ رَشْدًا ﴾ * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿ [الكهف : ٦٦ - ٧٠] .

فهذا صبر أشد من الصبر على نصب الأسفار ، ومتاعب الفقر والارتحال ، ولهذا صبر موسى على النصب في سفره الطويل ، ولم يطل صبره على هذا الأخير ، وقال له الخضر : ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٧٨] .

توقير المعلم وإكرامه :

ومن أدب المتعلم الذي جاءت به السنة النبوية : توقير المعلم ، وإعطاؤه ما يستحق من التكريم والإكبار ، فإن المعلم لتلميذه بمنزلة الأب لولده . بل قال يحيى بن معاذ رحمه الله : العلماء أرحم بأمة محمد - ﷺ - من آباؤهم وأمهاتهم . قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا ، والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة .

وبهذا صار حق المعلم - كما يقول الغزالي - أعظم من حق الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر ، والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية . ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلي الهلاك الدائم . وإنما المعلم هو المفيد للحياة الآخروية . أعنى معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة^(١) .

وفى المفاضلة بين المعلم والأب يقول الشاعر :

فهذا مربى الروح والروح جوهر وذاك مربى الجسم والجسم كالصدف !
وقال الحسن : لولا العلماء ، - أي : المعلمون - لصار الناس مثل البهائم !
أي : أنهم بالتعليم يخرجونهم من حضيض البهيمية إلى أفق الإنسانية .

ومن أجل هذا جاءت الأحاديث بتوقير العلماء ، وإكرامهم حتي بعد موتهم . وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ ، كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد (يعنى في القبر) ثم يقول : أيهما أكثر أخذاً للقرآن ؟ فإذا أشير إلي أحدهما قدمه في اللحد^(٢) . وفى هذا التقديم رمز لتكريمه لفضل ما معه من قرآن أكثر .

وعن أبى موسى أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن من إجلال الله إكرام ذى

(١) الإحياء : ج ١ / ٥٥ .

(٢) رواه البخارى فى الجنائز (١٣٤٣) - ترغيب ١٦٤ .

الشبيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالى فيه ، ولا الجافى عنه ، وإكرام ذى السلطان المقسط » (١) .

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ ، قال : « ليس من أمتى من لم يجبل كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا » (٢) ، أى : يعرف له حقه .

وحسبنا أن نذكر ونذكر هنا بقصة نبي الله وكليمه موسى بن عمران الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه ، وآتاه التوراة فيها موعظة وتفصيل لكل شئ فى زمنه . فلما أعلمه الله بما عند الخضر من علم ليس عنده ، رحل موسى إليه كما أشرنا إلي ذلك من قبل واستعذب العذاب فى سبيل ملاقاته والاستفادة منه ، فلما وجدته ، قال له موسى فى أدب التلميذ وتواضع المتعلم : ﴿ هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَنَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ . بهذه الصيغة الحاسمة « هل أتبعك » فهو اتباع وليس رفقة أو مصاحبة ، وهو يستأذنه فى هذا ، لأن المعلم المتطوع هو صاحب الحق فى انتقاء طلبته : يقبل من يشاء ، ويرفض من يريد ، ولا معقب عليه . هذا على الرغم من فضل موسى عليه بيقين ، فهو قد اختلف فى نبوته . علي حين موسى من أولى العزم من الرسل ، ويكفى قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

وقال ابن عباس : والله إن كنت لآتى الرجل منهم ، (أى : الأنصار) فيقال : هو نائم فلو شئت أن يوقظ لى ، فأدعه حتى يخرج ، لأستطيب بذلك حديثه (٣) .

وعن الشعبي قال : صلى زيد بن ثابت على جنازة ، ثم قرئت له بغلة ليركبها ، فجاء ابن عباس ، فأخذ بركابه توقيراً وتعظيماً لعلمه وفضله ، فقال له

(١) رواه أبو داود فى الأدب (٤٨٤٣) ترغيب ١٦٥ ، والمقسط العادل .

(٢) رواه أحمد (٣٢٣/٥) والطبرانى وقال الهيثمى : إسناده حسن المجمع (١٢٧/١) والحاكم ، إلا أنه قال : ليس منا .

(٣) الدارمى : ج ١ / ١١٥ .

زيد : خل عنك يا ابن عم رسول الله . فقال ابن عباس : هكذا نفعل بالعلماء والكبراء (١) .

وعن الزهري قال : كنت آتى باب عروة فأجلس بالباب ، ولو شئت أن أدخل لدخلت ، ولكن إجلالاً له (٢) .

وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : إن من حق العالم : ألا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته فى الجواب ، وألا تلح عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، (أى : تريد أن تستوقفه) ، ولا تفشين له سرّاً ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا تطلبن عشرته ، وإن زل قبلت معذرتة ، وعليك أن توقره وتعظمه لله ، مادام يحفظ أمر الله ، ولا تجلس أمامه ، (أى : تدير له ظهره) ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته (٣) .

ومن توقير المتعلم لمعلمه : أن يحسن الصمت فى موضعه ، كما يحسن الكلام أو السؤال فى موضعه .

قال الحسن بن على لابنه : يا بنى ، إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول ، وتعلم حسن الاستماع ، كما تتعلم حسن الصمت ، ولا تقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يمسك .

وقال شعبة : كل من سمعت منه حديثاً . فأنا له عبد !

وهذه الكلمة قد شاع معناها عند المسلمين حتى جرت مجرى المثل ، وهى قولهم : « من علمنى حرفاً صرت له عبداً » ! وهذه غاية فى التكريم للعلماء والمعلمين ، لم ترق إليها أمة من الأمم .

(١) « جامع بيان العلم » ج ١ / ١٥٥ وقال العراقى فى تخريج الإحياء : أخرجه الطبرانى فى الكبير وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح غير رزين الرماني وهو ثقة المجمع (٣٤٥/٩) والحاكم والبهقى فى المدخل ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد على شرط مسلم .

(٢) الدارمى : ج ١ / ١١٥ .

(٣) « جامع بيان العلم » ج ١ / ١٥٦ ، ١٥٧ .

ولم يشع بيت من الشعر في عصرنا كما شاع بيت شوقي في مطلع قصيدته الشهيرة في تكريم المعلم :

قُم للمعلم وقِّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا!!
أرأيت أعظم أو أجل من الذي يبني وينشئ أنفسا وعقولا!؟

حسن السؤال :

وليس من توقير العالم أو المعلم ترك سؤاله فيما يشكل عليه حياء منه ، فإن هذا ليس من الحياء الشرعي المحمود ، الذي هو من الإيمان ، ولا يأتي إلا بخير . وإنما هو ضعف ومهانة ، ولهذا قال مجاهد : لا يتعلم العلم مستحيى ولا مستكبر (١) .

وقالت عائشة رضي الله عنها : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين (٢) .

وروى البخارى عن أم سلمة رضي الله عنها ، قالت : جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيى من الحق ، فهل علي المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ (تعنى إذا رأت فى منامها أن رجلها يجامعها) . فقال النبي ﷺ : إذا رأت الماء .

وهنا نجد أم سلمة تغطى وجهها حياءً ، وعائشة تقبول لها - كما فى صحيح مسلم - فضحت النساء !! (٣) .

ومن غلبه الحياء فى أمر ما ، فليدع غيره ليسأل له عما يريد ، كما فعل على بن أبى طالب ، حين استحيا أن يسأل النبي ﷺ عن المذى ، لمكان رسول

(١) رواه البخارى معلقاً فى صحيحه - كتاب العلم - باب (٥٠) الحياء فى العلم - ووصله أبو نعيم فى «الحلية» ، بإسناد صحيح ، كما فى الفتح ج ١ / ٢٣٩ .

(٢) رواه البخارى معلقاً أيضاً كتاب العلم باب (٥٠) ووصله مسلم كما فى (الفتح نفسه) .

(٣) رواه البخارى فى كتاب العلم (١٣٠) .

الله ﷺ ، من ابنته التي هي زوجته ، فأمر المقداد وعماراً ، فسألا له رسول الله ﷺ عن ذلك (١) .

ويقول الإمام ابن شهاب الزهري : العلم خزائن ومفاتيحها السؤال . يعنى : أن الذى يستخرج ما فى صدور العلماء من العلم هو مساءلتهم . وفى هذا فائدة للعالم نفسه ، ليظهر الخبوء من علمه ويحيا وينتشر ، وفائدة للمتعلم ، ليعرف ما يجهل ، ويؤكد ما يعلم ، ويستوثق مما يستريب فيه .

وهذا شأن الطالب النابه ، لا يقرأ أو يسمع إلا ليعى ويفهم ، وإلا سأل وراجع . وروى البخارى عن ابن أبى ملكية : أن عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه (٢) .

وقد سأل كثير من الصحابة عن أمور لهم لم يستبين لهم المراد منها ، حتى أجيبوا عنها ، كسؤالهم عن آية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢] قائلين : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فأجيبوا : أن المراد بالظلم فى الآية الشرك . كقوله تعالى على لسان لقمان : ﴿ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .
وأمثال ذلك كثير ، ومن لم يسأل أضع على نفسه علماً كثيراً . يقول الشاعر :

إذا كنت لا تدري ولم تك بالذى يسائل من يدرى ، فكيف إذن تدري !
وقال عمر : من علم فليعلم ، ومن لم يعلم فليسأل العلماء .

* * *

(١) رواه البخارى فى كتاب العلم (١٣٢) « باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال .

الفتح ٢٤ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب العلم (١٠٣) .